التّأويل النّحويّ والبلاغيّ للنّصوص في ضوء الدّرس اللسّانيّ المعاصر
بائية أبي تمام أنموذجا

The grammatical and grammatical interpretation of texts in light of the contemporary linguistic lesson - Abi Tamam is a model

د/ صالح تقابجي
جامعة علي لونيسي- البليدة (02) /الجزائر
البريد الالكتروني: s.tekabdji@univ-blida2.dz

تاريخ الإرسال: 2019/04/21 تاريخ القبول:2020/01/19 تاريخ النشر: 2020/03/27

ملخّص:

أهدف من خلال هذه الورقة البحثيّة إلى الإبانة عن البناء اللّغويّ والفنّي لقصيدة أبي تمّام في فتح عمّوريّة من خلال الكشف عن البنية العميقة للقصيدة، ودلالة التّضاد فيها، وتنوّع أساليبها اللّغويّة، وجماليّات صورها الفنيّة، وزخرفها البديعيّ بالإضافة إلى تعدّد الجمل فيها بين الفعليّة والاسميّة، مستعينا في ذلك بما توفّره نظريّة النّظم من آليّات إجرائيّة لبلوغ غايتي المتمثّلة في قراءة نصّ إبداعيّ، والإفصاح عن مغزاه الكامن وراء بنائه اللّغويّ، وأعكف في دراستي هذه على البحث في اللّسانيّات العربيّة انطلاقا ممّا خلّفه أسلافنا، والسّعي لاستثماره في معالجة الظّواهر اللّغويّة في ضوء ما يوفّره الدّرس اللسّانيّ المعاصر.

الكلمات المفتاحيّة: صلة النّظم بعلوم العربيّة – النّظم والدّراسات اللّسانيّة الحديثة – صلة النّظم بالنّقد - تحليل القصيدة وفق نظريّة النّظم.

Abstract:

The objective of this research paper is to reveal the linguistic and artistic construction of Abu Tammam's poem in Ammur's opening by revealing the deep structure of the poem, the contrast of it, the diversity of its linguistic styles, the aesthetics of its artistic images, its original decoration, Using the system theory provided by procedural mechanisms to achieve my goal of reading an innovative text, and to disclose the meaning behind the linguistic construction, and I work in this study to research the Arabic linguistics from the legacy of our predecessors, and seek to exclude Wara in the treatment of linguistic phenomena in the light provided by the contemporary lesson Lingual.

Keywords: Link systems in Arabic sciences - Modern systems and linguistic studies - Link systems in criticism - Analysis of the poem according to systems theory.

مقدّمة:

بذل علماؤنا القدامى جهودا مضنية في دراسة هذه النّظريّة، الّتي أخصّها بدراسة تفصيليّة، وأحاول توظيفها كآلية إجرائيّة لتحليل التّراكيب اللّغويّة، مع إسقاط ذلك على واقع الدّراسات اللّسانيّة الحديثة، وهذا ما يعطينا صورة جلية عن معالم التّحليل الدّلاليّ للنّصوص اللّغويّة، ويعيننا على إيجاد فكرة واضحة عن أصول كلّ ما يتّصل بهذه النّظريّة من علوم العربيّة، على غرار علمي النّحو والبلاغة أو ما أصبح يسمّى بلاغة النّحو؛ نظرا لتقاطعهما في دراسة التّراكيب الإسناديّة، واعتماد علم المعاني في تحليل الخطابات والأساليب اللّغويّة على معاني النّحو، والوظائف الإعرابيّة لمكوّنات الجملة، بالإضافة إلى الدّلالة، وهو المستوى اللّسانيّ الذي تتّضح من خلاله الأغراض والمقاصد، لأنّه يعدّ محصّلة لما ينتج عن الدّلالات الجزئيّة للمستويات اللّسانيّة الأخرى.

فقد أسهم النّحاة والبلاغيّون القدامى في بيان التّرابط النّصيّ وتماسكه بمعالجتهم لمختلف المظاهر اللّغويّة، كالتّقديم والتّأخير، والفصل والوصل، والتّعليق، والتّكرار وغيرها..، غير أنّ دراستهم للنّصوص وتحليلها لم تتجاوز حدود مفهوم الجملة، حيث يتمّ عزلها عن موقعها في النّص، وبالتّالي تعزل عن وظيفتها

الاتّصاليّة والإعلاميّة، وعدّت موضوعا للدّراسة كنموذج مكتمل في معناه ومبناه باعتبارها أصغر وحدة معنويّة، فقد اهتمّ العلماء القدامى بمعاني النّحو لفهم التّراكيب اللّغويّة، وهذا ما ذهب إليه تشومسكي حين عدّ أنّ فهم البنية العميقة ضروريّ لتفسير الجملة تفسيرا دلاليّا صحيحا، فمعرفة الدّلالة سبيل إلى معرفة العلاقات النّحويّة بين الكلمات.

وللتّذكير فقد عرفت جميع اللّغات الّتي لها نظام نحويّ وبلاغيّ هذا النّوع من الدّراسات اللّسانيّة أو النّصيّة الّتي لم تعد مفيدة وكافية بالقدر المطلوب في زمن تطورت فيه العلوم والتّقنيات، وهذا ما دفع بالكثير من علماء اللّغة في منتصف القرن الماضي إلى التّوجه إلى تأسيس علم خاصّ بدراسة النّصوص وتحليلها، وتجسّدت جهودهم بظهور اختصاص جديد يتناول موضوع واحد، ولكن وضعت بمقابله مصطلحات مختلفة؛ منها: اللّسانيات النّصيّة، علم النّص، نحو النّص، تحليل الخطاب، لسانيات الخطاب..، وتتمحور كلّها حول الخطاب الملفوظ أو المكتوب، فما النّص الّذي يكون موضوعا للدّرس اللّسانيّ عموما؟ وكيف ينظر إليه علماء اللّسانيّات المحدثون؟ وما الّذي تختلف فيه الدّراسات اللّسانيّة الحديثة عن دراساتنا النّحويّة والبلاغيّة التّراثيّة؟

فإذا كان النّحاة القدامى قد ركّزوا على مستوى الجملة فقط لأنّهم وجّهوا عنايتهم كاملة إلى العمليّة الإسناديّة، وما يتعلّق بالجملة من ابتداء وفاعليّة، وضرورة الرّابط في الخبر الجملة، وجملة الصّلة..، ولم يتعدّوا مفهوم حدود الجملة إلاّ نادرا؛ فإنّ علماء اللّغة المحدثين قد ركّزوا على مستوى أجزاء الجملة، وعلاقاتها بالجمل الأخرى، وعلاقة الجملة بالفقرة، وعلاقاتها بالنّص بوصفه بنية كلّية، والنّحو بشكل عامّ هو العلم الّذي يكشف عن خبايا المباني اللّغويّة، وكيفيّات ارتباطها، ووسائل تماسك الدّلالات وانسجامها.

1)- مفهوم النّظم:

النّظم لغة: بمعنى الجمع والضّم والنّظام والرّبط والتّأليف، كما ورد في اللّسان هو: "التّأليف وضمّ شيء إلى شيء آخر، ويقال: نظمت اللّؤلؤ؛ أي جمعته في السّلك، والتّنظيم مثله، ومنه نظمت الشّعر، ونظّمه، ونظم الأمر على المثل..، والنّظم: المنظوم وصف بالمصدر، والنّظام: الخيط الّذي ينظم اللّؤلؤ"[1]، ويراد به ضمّ الكلمات المتخيّرة على الوجه الّذي يقتضيه المنطق، "ويقال: نظم القرآن؛ أي عباراته الّتي تشتمل عليها المصاحف صيغة ولغة، ومن كلّ شيء ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد"[2].

واصطلاحا: النّظم يكون على مستوى الحروف والكلمات والجمل، وهو ما يقوم على محاكاة المأثور من كلام العرب والقياس عليه، ولهذا قالوا: " البلاغة الإيجاز من غير عجز، والإطناب في غير خطل، وهي الّتي إذا سمعها الجاهل ظنّ أنّه يحسن مثلها "، وكذلك قالوا: " لكلّ مقام مقال"، وقالوا أيضا: " بالمثال يتّضح المقال "، وغيره ممّا أصبح مضربا للأمثال، وهذا " بغية إظهار طرائق الفصاحة والبلاغة، وما يتعلّق بذلك من الخطاب الموروث بالسّليقة؛ فالنّظم مجموعة من العناصر المتّحدة في العمليّة اللّغويّة ليكون الكلام حسنا، ويمكن إجمال هذه الخصائص فيما يلي"[3]:

- حسن اختيار أصوات الكلمة.
- تعليق الكلمة في ذاتها.
- تعليقها بما يجاورها، وليس ضمّ الكلمات كيفما جاء.

- مراعاة الموقع النّحويّ الأصيل حسب ما تقتضيه بيئة العربيّ.
- مراعاة المعنى المباشر (السّطحيّ) غير المنزاح، والمعنى غير المباشر (العميق) المنزاح.

2)- نشأة نظريّة النّظم:

بدأت بذور فكرة النّظم تنمو في ثنايا كتب النّحو والبلاغة وإعجاز القرآن[4]، ولو تتبّعنا مراحل نشأة نظريّة النّظم وتبلورها سنجد أنّ سيبويه (ت180هـ) قد لمّح إلى كلمة التّأليف في مواضع كثيرة، وأشار إلى ما يؤدّي إلى صحّة الكلام وفساده، وحسنه وقبحه في باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فهو يقول: " هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب"[5]؛ وضرب مثالا لكلّ تركيب؛ فالمستقيم الحسن كقولنا: أتيتك أمس وسآتيك غدا، والمحال: أتيتك غدا وسآتيك أمس، والمستقيم الكذب: حملت الجبل وشربت ماء البحر، والمستقيم القبيح: قد زيدا رأيت..، والمحال الكذب: شربت ماء البحر غدا..، فقد تحدّث سيبويه "عن مفهوم النّظم بمراعاة أحوال النّحو فيه، فهو يرى أنّ المعاني تختلف باختلاف التّراكيب، وهذا ما ذهب إليه علماء اللّغة والبلاغيّون المتأخرون في علم المعاني"[6].

وبعده تحدّث أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ) عن مجاز القرآن، وتتبّع الذّوق البلاغيّ في معاني القرآن، وسار على منواله الفرّاء (ت 207هـ) في كتابه "معاني القرآن"، أمّا الجاحظ (ت255هـ) الّذي قال:" المعاني مطروحة في الطّريق يعرفها العجميّ والعربيّ والبدويّ والقرويّ، وإنّما الشّأن في إقامة الوزن وتخيّر اللّفظ وسهولة المخرج.."[7]؛ فقد فرّق بين النّظم القرآنيّ ونظم الكلام، وتحدّث عن اللّفظة المفردة، واشترط فيها أن تكون خالية من تنافر الحروف، لا وحشية جارية على ألسنة العرب، وأن تكون الألفاظ سهلة كأنّها لفظ واحد، " وأجود الشّعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغا واحدا، وسبك سبكا واحدا، فهو يجري على اللّسان كما يجري الدّهان"[8].

أمّا عبد القاهر الجرجاني فقد حاول أن يثبت بفكره الأشعريّ أنّ إعجاز القرآن هو عجز العرب عن معارضة القرآن، وأوضح أوجه هذا الإعجاز بقوله: " أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه وخصائص صادفوها في سياق لفظه..، وفي مضرب كلّ مثل ومساق كلّ خبر..، وبهرهم أنّهم تأمّلوه سورة سورة، وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينوبها مكانها، ولفظة ينكر شأنها..، بل وجدوا اتّساقا بهر العقول..، ونظاما والتئاما لم يدع في نفس بليغ منهم موضع طمع.."[9]، وإن كان بعض العلماء السّابقين قد أشاروا إلى أنّ القرآن معجز بنظمه، وحسن تأليفه، ولكنّهم لم يبيّنوا جوانب هذا الإعجاز على الوجه الّذي أظهره به عبد القاهر، إذ يقول: " ومن عادة قوم ممّن يتعاطى التّفسير بغير علم أن توهّموا في الألفاظ الموضوعة على المجاز والتّمثيل أنّها على ظواهرها، فيفسدوا المعنى بذلك، ويبطلوا الغرض، ويمنعوا أنفسهم والسّامع منهم من العلم بموضع البلاغة، وبمكان الشّرف.."[10]، فالنّاظر في كتاب الله تعالى ينبغي أن يكون ملمّا بعلوم العربيّة ليصل إلى فهم أسراره وإعجازه، ولابدّ للمفسّرين أن يكونوا على علم بالأساليب، وما وراء الألفاظ لئلا يفسدوا المعاني، ويبطلوا الألفاظ، وفي ردّه على المعتزلة الّذين قالوا بالصّرفة[11]، قال: " فإذا ثبت أن لا شكّ ولا مرية في أن ليس النّظم شيئا غير توخّي معاني النّحو وأحكامه فيما بين معاني الكلم، ثبت من ذلك أنّ طالب دليل الإعجاز من نظم القرآن إذا هو لم يطلبه في معاني النّحو وأحكامه ووجوهه وفروقه، ولم يعل أنّها موضعه ومكانه،

وأنّه إن أبى أن يكون القرآن معجزا بنظمه، ولزم أن يثبت شيئا آخر يكون معجزا به، وأن يلحق بأصحاب الصّرفة، فيدفع الإعجاز من أصله.."[12].

3- صلة النّظم بالدّراسات اللّسانيّة الحديثة:

حظيت نظريّة النّظم باهتمام كبير من طرف علماء اللّغة المحدثين، حيث تناولوا كتابي عبد القاهر الجرجاني (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز) بالدّراسة، فقد أقرّ كلّ من بحث في هذين المؤلفين أنّ نظرية النّظم تماثل ما توصّلت إليه اللّسانيّات الحديثة من نظريّات؛ إذ يرى إبراهيم مصطفى أنّه قد رسم في كتابه (دلائل الإعجاز) طريقا جديدا للبحث النّحويّ تجاوز علامات الإعراب، وكان يلوم المتأخرين الّذين لم يقتدوا به، وعدّ فصل النّحو عن علم المعاني قد أزهق فكرة النّظم الّتي سنّها الجرجاني، وأنّ إحياء النّحو يكون بإبعاده عن هذا الجفاف الّذي يعيش فيه، والعودة إلى ما ذهب إليه الجرجاني، كما درس محمّد مندور نظريّة النّظم، وتكلّم عن الأسس اللّغويّة لمنهج الجرجانيّ في نقد النّصوص، إذ يقول: " لقد فطن عبد القاهر إلى أنّ اللّغة ليست مجموعة من الألفاظ، بل مجموعة من العلاقات"[13]، وممّن ناقشوا فكرة النّظم إبراهيم أنيس الّذي يرى أنّه يندر من قصر كتابا مستقلا أو فصولا من كتاب عن نظام الجملة العربيّة، حتّى جاء عبد القاهر فعني بهذا الأمر كلّ العناية[14]، بالإضافة إلى آراء أخرى مماثلة لكلّ من شوقي ضيف، وإحسان عبّاس، وتمّام حسّان وغيرهم.

فإنّ نظم الكلمات في الجملة العربيّة يتمّ وفق آليات معيّنة، ومنها معرفة دلالة اللّفظة خارج السّياق لتحديد نوع العلاقة بين مكوّنات الجملة، وهذا ما تتقارب معه الدّراسات اللّسانيّة الحديثة فقد اهتمّ أصحابها بعناصر تحديد الدّلالة، حيث يرى دي سوسير أنّ العلاقة بين الكلمة ومعناها علاقة كيان نفسيّ واجتماعيّ متشكّل المفهوم والصّورة الصّوتيّة، أمّا بلومفيلد ومن خلال نظريّته السّلوكيّة فقد عدّ اللّغة ظاهرة سلوكيّة متطوّرة قابلة للملاحظة والقياس، وفسّر ذلك وفق منهج المثير والاستجابة، أمّا فيرث فيرى أنّ للسّياق دورا في تحديد الدّلالة، وذهب أصحاب نظريّة الحقول الدّلاليّة إلى أنّ الّذي يحدّد دلالة الكلمة اشتراكها مع كلمة أخرى ضمن حقل دلاليّ واحد، كما ميّز علماؤنا القدامى بين عناصر تحديد الدّلالة الّتي توصل إلى المعنى المراد بدقّة ومن غير لبس أو إبهام[15]؛ فالتّوافقيّة بين مكوّنات الجملة العربيّة "إنّما تعتمد أصلا على مخزوننا اللّغويّ؛ فكلمة (شاهق) لا تتّفق مع كلمة (رجل)، بل تتّفق معها كلمة أخرى وهي (جبل)، فيقال: جبل شاهق، ورجل طويل وهكذا.. وهذه التّوافقيّة تعمل أيضا على تحديد الوظيفة النّحويّة لكلّ مكوّن، فإذا ابتدأنا الجملة بكلمة (سافر) لا يمكننا أن نعقبه بكلمة الجبل"[16]، ولعلّها من التّقنيات الّتي تبرمج في الهواتف الذّكيّة الحديثة لتسهيل عملية البحث عبر شبكة الأنترنت ومواقع التّواصل الاجتماعيّ، وتبادل الرّسائل الإلكترونيّة بين مستخدمي هذه الأجهزة.

فالتّفسير الدّلاليّ لأي نصّ في الدّراسات اللّسانيّة الحديثة يقوم على معطيات مفرداته المؤلّفة في نظام لغته، وهذا **النّظم** يكوّن سياقه اللّغويّ الخاصّ به، ويبنيه بروابطه وعلاقاته، ويحدّد أبعاده النّصيّة، وعليه فإنّ التّعليق بين الكلمات هو الّذي يكسب الجملة معناها، أمّا الكلمات الحرّة أو المستقلّة فلن تكون كذلك، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجانيّ في مؤلّفه (دلائل الإعجاز)، فقد كان منطلق نظريّة النّظم توخّي معاني النّحو؛ لأنّ الكلام " إنّما وضع للفائدة، والفائدة لا تجنى من الكلمة الواحدة، إنّما تجنى من الجمل

ومدارج القول"[17]، فإنّ طريقة الجرجانيّ في الاستدلال تكاد تتّفق معها طريقة تشومسكي (N. Chomsky) وجاكبسون (R. Jacobson)، " فقد أصبح الرّبط بين النّحو والدّلالة على الوجه الّذي نألفه في التّراث العربيّ أساسا موضوعيّا منهجيّا لأشهر المدارس اللّسانيّة المعاصرة، وعلى رأسها المدرسة النّحويّة التّحويليّة (Transformational Grammar) الّتي ابتدأت ملامحها بالعالم اللّغويّ هاريس (Haris) وانتهت مدرسة متكاملة ونظريّة علميّة على يد تلميذه تشومسكي في كتابه الشّهير (التّراكيب النّحويّة)، وقد حاول الاستناد إلى طبيعة التّركيب النّحويّ في الوقوف على دلالته، متخذا في الوقت نفسه من المادّة الدّلاليّة للتّركيب دليلا يهتدي به لمعرفة الصّلات النّحويّة بين مكونات التّركيب اللّغويّ"[18]، فإنّ الطّريقة الّتي يقدّمها النّحو التّحويليّ في تفسير ظاهرة الحذف شبيهة بما قدّمه النّحو العربيّ[19].

فلا يصحّ أن يؤخذ اللّفظ معزولا عن سياقه الخاصّ (هو تعليقه في جملته وعلاقته التّبادليّة مع ما يكوّن معه جملة)، أو العامّ (هو النّص كلّه)، وبهذا ينبني المعنى ويتكامل كما يرى تودوروف، أمّا القضية الأخرى الّتي يتوقّف عليها إكساب الجملة معناها (وهي ما يكوّن المجاز في العمل الأدبيّ) فقد تناولها سيبويه في باب الاستقامة والإحالة من الكلام، والشّواهد الّتي تدلّل على تقاطع الدّراسات اللّغويّة لدى قدامى العرب مع الدّراسات اللّسانيّة المعاصرة لدى العلماء الغربيّين كثيرة، والمقام يستوجب الإيجاز؛ إذ " تكاد تجمع التّعريفات الحديثة للّغة على أنّها نظام"[20]، ولكلّ نظام عناصره الأساسيّة المكوّنة له، فإنّ المتكلّم يصدر أصواتا متتابعة وفق نظام معيّن يهدف إلى دلالة مقصودة، ويتحقّق ذلك إذا تآلفت هذه الأصوات المنطوقة الّتي تصوّر كتابة بالحروف، فتكوّن مقاطع، ومنها تتكوّن الأبنية (الكلمات) الّتي ترتبط في علاقات تركيبيّة ودلاليّة تسمّى جملا، وهذه المستويات في حقيقة الأمر" تعمل في تناسق وتكامل، ولا يكون فصل أحدها عن الآخر إلاّ ظاهريّا ومن أجل غرض تعليميّ، فالتّرابط بينها عضويّ، والتّداخل طبيعيّ"[21].

وإذا كان النّحاة القدامى قد ركّزوا على مستوى الجملة فقط لأنّهم وجّهوا عنايتهم كاملة إلى العمليّة الإسناديّة، وما يتعلّق بالجملة من ابتداء وفاعليّة، وضرورة الرّابط في الخبر الجملة، وجملة الصّلة..، ولم يتعدّوا مفهوم حدود الجملة إلاّ نادرا؛ فإنّ علماء اللّغة المحدثين ركّزوا على مستوى أجزاء الجملة، وعلاقاتها بالجمل الأخرى، وعلاقة الجملة بالفقرة، وعلاقاتها بالنّص بوصفه بنية كلّية، والنّحو بشكل عامّ هو العلم الّذي يكشف عن خبايا المباني اللّغويّة، وكيفيّات ارتباطها، ووسائل تماسك الدّلالات وانسجامها؛ لأنّ من معاني كلمة النّحو في اللّغة القصد، وفي الاصطلاح هو المقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، ومن معاني النّص اللّغويّة استقصاء المسألة عن شيء، وفي الاصطلاح تتابع متماسك من الجمل؛ فالمعنى اللّغويّ لهذا المركب اللّغويّ (نحو النّص) قصد الاستقصاء، ومعناه الاصطلاحيّ هو المقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب المطبّقة على تتابع متماسك من الجمل، ويعرّفه أهل الاختصاص بأنّه العلم الّذي يبحث في سمات النّصوص وأنواعها، وصور التّرابط والانسجام داخلها، ويهدف إلى تحليلها في أدقّ صورة تمكّننا من فهمها، وتصنيفها، ووضع نحو خاصّ بها، ممّا يسهم في إنجاح عمليّة التّواصل الّتي يسعى إليها منتج النّص، ويشرك فيها متلقّيه"[22].

فنحو النّص اتّجاه جديد في الدّراسات اللّسانيّة الحديثة المتعلّقة بالنّصوص اللّغويّة، حيث يتجاوز النّص كلّ حدود المعياريّة، وكان ذلك نتاج تفاعل مجموعة من العلوم المتنوّعة، فهذا النّحو بشكل عامّ هو

العلم الّذي يفصح عن خبايا المباني اللّغويّة، وطريقة ارتباطها بالمعاني من خلال وسائل التّماسك النّصيّ ليعطي معناه للمتلقي كما أراده المتكلّم، وقد ظهر نحو النّص بعد البحوث اللّغويّة المتواصلة في المدراس الغربيّة، حيث كانت بداية إرهاصاته مع هاريس Harris في النّصف الثّاني من القرن الماضي، وتطوّرت تلك الدّراسات فيما بعد على يد فان دايك Van Dijk الّذي يعدّ مؤسّس نحو النّص[23]، إلى أن أضحى نحو النّص حقيقة راسخة في الثّمانينيات من القرن الماضي على يد دي بوجراند Robert De Beaugrande.

وفي عام 1976 نشرت الباحثة رقية حسن بالاشتراك مع زوجها مايكل هاليداي Haliday M تحليلا للتّماسك النّصيّ في اللّغة الإنجليزيّة (التّماسك في اللّغة الإنجليزيّة) (Cohesion In English)، فهما يريان أنّ اللّغة نظام معقّد من الخيارات المترابطة الّتي تتخذ لتحميل معنى ما، تحمل معها إدراك مجتمع ما لحضاراته وتاريخه، وقد استطاعا شرح تشابك السّياق الحضاريّ مع الأساليب النّحويّة بدقّة، فقد كان يُنظر إلى اللّغة في كلّ هذه المساعي على أنّها سيميوطيقا اجتماعيّة بناء على نظرة هاليداي للّغة إذ يعدّ السّياق اللّغويّ كبنية سيميائيّة ذات معنى تمتلك ثلاثة معالم أساسيّة تتمثّل في المجال والمغزى والصّيغة؛ وبذلك يدخل في جملة وظائف نحو النّص موضوعات كثيرة يختصّ بها علم البلاغة، كمطابقة الكلام لمقتضى الحال، والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب وغيرها، كما يدخل فيها أمورا يعنى بها نقاد الشّعر والأدب، كالحديث عن الوحدة العضويّة، والوحدة الموضوعيّة، والعلاقة بين الشّكل والمضمون وغير ذلك[24].

ولا يتّفق نحو الجملة مع نحو النّص إلاّ في معيارين هما: **السّبك** وذلك لتحقيق التّرابط اللّفظيّ بين أجزاء الجملة، **والحبك** لتحقيق التّرابط المعنويّ بين أجزاء الجملة[25]، فالتّماسك اللّفظيّ علاقة تشمل عدّة أمور مثل الافتقار والاختصاص والتّلازم والمطابقة وعود الضّمير...، أمّا الاتّساق فهو علاقة في الجانب المعنويّ بين المتضامّين تجعل أحدهما متّصل بالآخر لفهمه، فلا يمكن أن يستغني نحو النّص عن نحو الجملة؛ لأنّ الدّراسات المتعلّقة بنحو الجملة هي الأساس لكثير من الدّراسات في نحو النّص وتصوّراته ومفاهيمه، ويرى تمام حسان أنّ خمسة معايير يختصّ بها نحو النّص ولا تعني نحو الجملة، وهي: القصد والتّناص ورعاية الموقف والإعلاميّة والقبول؛ حيث يتّصل بعضها بالأسلوبيّة (التّناص)، وبعضها بالبلاغة (المقاميّة والإعلاميّة)، وبعضها بمنهج النّص أو متلقيه (القصد والقبول).

والتّحليل في نحو الجملة يبدأ بعزل الجمل عن سياقها في النّص حتّى يتسنى للنّحويّ الكشف عن نماذج من الجمل، وتحديد قوانينها الحاكمة لمكوّناتها التّركيبيّة، وهذا لا يعطي لكلّية النّص قيمة دلاليّة فاعلة؛ لأنّ هذه العمليّة لا يراعى فيها علاقة آخر النّص بأوّله، وكيفيّة التّرابط بين أجزائه، أمّا نحو النّص فإنّه "ليس مجرّد مجموعة من القواعد الصّارمة الّتي تطبّق على النّص؛ بل إنّه مجموعة من القوانين الاختياريّة الّتي استخلصت من النّص نفسه، فمن البديهيّ أن يعثر على تلك الحريّة في الجانب الدّلاليّ الّذي يتّصف بالحركيّة والتّغيّر لتحديد المعنى الكلّي للنّص، وتحديد القوانين الحاكمة لبنيته الشّموليّة الّتي تتجاوز الدّلالات الجزئيّة"[26].

فنحو النّص إذن لا يعترف باستقلاليّة الجملة، ونحو الجملة لا يتجاوز حدودها إلى النّص، وقد يشتركان أحيانا في شكل واحد، حيث إنّ نحو الجملة يعتمد على اعتبارات ذات علاقة بالسّياق في التّحليل النّحويّ، وهذا ما يتداخل مع نحو النّص، فرغم أنّ فان دايك كان قد وجّه نقده لنحو الجملة على أساس

عدم كفايته لوصف ظواهر تتجاوز حدود الجملة إلاّ أنّه لا يرفض نحو الجملة رفضا قاطعا، ولم يقلّل من قيمته، بل إنّ الأمر بالنّسبة له أصبح يستوجب إدخال عناصر دلاليّة وتداوليّة إلى الوصف والتّحليل اللّغويّين[27]؛ لأنّ علماء نحو النّص قد أخذوا في الاعتبار الجملة كنقطة بداية لتحليل النّصوص، وعليه فلا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر، فنحو الجملة يحتاج إلى مراعاة السّياق أحيانا، ونحو النّص يلجأ إلى الجملة لبداية التّحليل. وبذلك تكون قواعد نحو الجملة هي المؤسّس لقواعد نحو النّص، فنحو النّص نحو تطبيقيّ غير نظريّ، إذ لا ينشأ إلاّ بعد اكتمال النّص؛ لأنّه مستخرج من مادّته[28]، وعليه فالمعياريّة في نحو النّص تكون داخل النّص لا من خارجه؛ ويكمن التّشابه بين نحو النّص ونحو الجملة في أمرين هما:

- أنّ كليهما يهتمّ بيان العلاقة النّحويّة والدّلاليّة بين الأجزاء مع الاقتصار على الجملة أو تجاوزها.
- أنّ كليهما يُعنى بالوسائل الّتي تحقّق التّرابط بين الأجزاء، كأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، وغير ذلك.

أمّا أوجه الاختلاف بين نحو النّص ونحو الجملة فهي كالآتي[29]:

- يتميّز نحو الجملة بصفة الاطّراد، أي أنّ القاعدة حكم على اللّغة، وكلّ ما خالفها يعدّ شذوذا، فالقاعدة في نحو الجملة معيار للصّواب والخطأ منذ استنباطها وإقرارها، فهي حكم مطلق على الكلام كلّه؛ أمّا نحو النّص فلا يلتزم بالاطّراد في القاعدة، بل يجيز لقائل النّص مخالفتها لغير ضرورة إذا كان له غرض من تلك المخالفة؛ فنحو النّص لا يلتزم بالقواعد النّحويّة لأنّها ليست المعيار الوحيد في الحكم على النّص، فكلّ نصّ له ما يلائمه من القواعد، وقد يحتكم إلى قاعدة ينشئها بعد اكتمال النّص.
- القاعدة في نحو الجملة تقتصر على الجملة الواحدة ولا تتعدّاها إلاّ في حالة العطف أو الاستدراك أو ما شابه ذلك، ونحو النّص يتجاوز الجملة إلى أجزاء النّص كلّه مهما كانت جمله.

4- صلة النّظم بالنّقد الأدبيّ:

لقد استطاع عبد القاهر الجرجاني أن يقحم الصّورة الأدبيّة الّتي تحدث باجتماع اللّفظ والمعنى كعنصر ثالث في النّقد الأدبيّ، فحلّ الإشكال المطروح بخصوص ثنائية التّعبير العادي، والتّعبير المنمّق، " فأعلن بذلك أنّ القيمة الموجودة في الصّورة البيانيّة ليست لها لذاتها، بل هي لها من حيث قدرتها على الانصهار مع غيرها من عناصر التّعبير الأدبيّ، والتّفاعل مع غيرها، وعلى مدى ما اكتسبته الاستعارة من خصائص يمنحها السّياق نفسه"[30]، كما اتّخذ عبد القاهر من الذّوق مقياسا مهمّا لإدراك أسرار الجمال، فقال: " فأمّا من كان لا يتفقّد من أمر النّظم إلاّ الصّحة المطلقة، وإلاّ إعرابا ظاهرا، فما أقلّ ما يجري الكلام معه، فليكن من هذه صفته عندك بمنزلة من عدم الإحساس بوزن الشّعر والذوق الّذي يقيمه به، والطّبع الّذي يميز صحيحه من مكسوره.."[31].

وكان لا يصدر أحكاما نقديّة إلاّ بالنّظر إلى العمل الأدبيّ كوحدة، حيث يقول: " إذا كان النّظم سويا، والتّأليف مستقيما، كان وصول المعنى إلى قلبك تلو وصول اللّفظ إلى سمعك، وإذا كان على خلاف ما ينبغي، وصل اللّفظ إلى السّمع وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه، وإذا أفرط الأمر في ذلك صار إلى التّعقيد الّذي قالوا إنّه يستهلك المعنى"[32]، وفيما يتعلّق بمسألة السّرقات الأدبيّة فهو يرى أنّ " الحكم على الشّاعر بأنّه أخذ من غيره، وسرق واقتدى بمن تقدّم وسبق لا يخلو من أن يكون في المعنى صريحا أو في صيغة تتعلّق بالعبارة"[33]، وقال في موضع آخر: " كذلك لا تكون الكلم المفردة الّتي هي أسماء وأفعال وحروف كلاما وشعرا

من غير أن يحدث فيها النّظم الّذي حقيقته توخّي معاني النّحو وأحكامه، فإذن ليس لمن يتصدّى لما ذكرنا من أن يعمد إلى بيت فيضع مكان كلّ لفظة في معناها إلاّ أن يترك عقله ويستحقّ"[34].

ومن أولى اهتمامات البحث اللّسانيّ توفير الإطار النّظريّ، وتيسير الإجراء التّطبيقيّ بوضع ضوابط، وأسس دقيقة لتشكيل المصطلح الّذي يمكن أن يعوّل عليه في حلّ الإشكال القائم في واقع الدّراسات اللّسانيّة العربيّة الرّاهنة؛ فكثيرا ما تتغير المفاهيم من عصر إلى عصر، فيتغيّر المصطلح، ويظل المفهوم كما هو؛ وبما أنّ اللّغة العربيّة ليست شيئا جامدا بعيدة عن التّأثير والتّأثّر، بل هي ظاهرة اجتماعيّة تخضع لنواميس التّرقية؛ فإنّ نظام الجملة وطرق الاشتقاق، وموازين الصّرف فيها تتفاعل مع المستجدّات، وتتحصّل فيها على المظاهر البلاغيّة في الجملة من تقديم وتأخير، مثلها مثل غيرها من اللّغات، ولكن يجب الاحتراز من المعنى الّذي تؤدّيه هذه التّغيّرات، "فكلّ مرونة في التّقديم تستند إلى أسلوبيّة ذرائعيّة تتفاعل مع المخاطب، ولذلك يتغيّر المعنى كلّما يحصل التّقديم"، إذ يعدّ الدّكتور عبد المالك مرتاض من أبرز الباحثين العرب في هذا المجال، حيث عمل على تطويع المصطلحات الغربيّة الحديثة، وحاول أن يجد ما يقابلها في لغتنا العربيّة موظّفا كلّ إمكانيّاته اللّغويّة؛ علاوة على تشبّعه من منابع التّراث العربيّ الأصيل، كما استعان بخبرته النّقديّة، ومعرفته للثّقافة الغربيّة، وإتقانه للّغة الفرنسيّة، ومن هذا المنظور الفكريّ الواسع وقف عبد المالك مرتاض على بعض المفاهيم السّميائيّة ليضعها في مختبر المصطلحات البلاغيّة، فاكتشف أنّ النّقاد العرب القدامى حينما خاضوا في مسألة السّرقات الأدبيّة" إنّما كانوا يخوضون في نظرية (التناصية) Intertextualité دون أن يدروا أنهم يخوضون في ذلك"[35]؛ وهنا نلاحظ أنّ الباحث أراد بهذا الملفوظ أن يؤكّد على أن أصل نظريّة (التّناصيّة) عربيّ قديم، فدلالة مفهوم (السّرقات الأدبيّة) هو ذلك ما توحي به لفظة (التّناصيّة).

في ظلّ هذا التّشابك الاصطلاحيّ طالب الباحث عبد المالك مرتاض أن يتمّ إعادة النّظر في ما هو رائج من مصطلحات في مجال العلوم الإنسانيّة؛ كاللّسانيّات والسّميائيّات، ورأى أنّه يجب التّأصيل لتلك المفاهيم الوافدة من الغرب؛ لأنّ الكثير منها كان متداولا، أو بالأحرى تطرّق إليه -ولو بإيماءات- النّقاد والبلاغيّون العرب القدامى، حيث قال: "وقد تأمّلنا نحن بعض المفاهيم السّيمائية المتداولة على عهدنا هذا، فألفينا بعضها مما يركض في هذا المجال؛ أي الأصل فيها بلاغيّ، ولكن الرّاهن الّذي هي عليه سيميائيّ"[36]؛ فقد سعى عبد المالك مرتاض إلى تعزيز المصطلح النّقديّ في المناهج الحديثة مازجا بين القديم والحديث، بغية الوصول إلى عطاء نقديّ أصيل ذي خصوصيّات لها جذور في التّاريخ، ولها امتداد في أعماق الحداثة؛ وهو ما أعطى لدراساته سمة مميّزة تكشف عن مدى استيعابه للنّظريّات النّقديّة الحديثة، وبعد بحث وتنقيب في التّراث البلاغيّ والنّقديّ العربيّ، انتهى الباحث عبد المالك مرتاض إلى أنّ بعض المفاهيم السّيميائيّة المعاصرة كانت في أصلها بلاغيّة؛ حيث وجد أنّه ما كان يطلق عليه "(البديع والمعاني) في البلاغة العربيّة، ليس إلّا (الأسلوبيّة) La stylistique بالمصطلح الحديث، وما كان يطلق عليه العدول، ليس إلّا الانزياح في المصطلحات الجديدة"[37].

ورغم صعوبة البحث -كما وصفه الباحث ذاته- في مثل هذا النّوع من الدّراسات؛ إلاّ أنّه استطاع استجلاء ماهية هذه المفاهيم، ورصد منابعها الأصلية؛ فإنّ للمصطلح السّيميائيّ تأثيرات جمّة على الجانب

الفكريّ والأدبيّ، فهو يشكّل حلقة وصل بين اللّسانيّات والنّقد؛ ومن المصطلحات الّتي شهدت رواجا واسعا في ساحة النّقد العربيّ المعاصر، وتضاربت الآراء حول دلالاتها، وتجدّد مفاهيمها؛ نجد الألفاظ الآتية: سمة – سيميائيّة – أيقونة – مؤشّر- تناصّ- تشاكل – خطاب - نصّ– شعريّة – لغة اللّغة – نقد النّقد – قراءة – كتابة – انزياح – عدول – قراءة القراءة – تأويليّة...، وغيرها من الألفاظ المتداولة من قبل النّقاد المعاصرين؛ وتعدّ هذه المصطلحات (كلمات / مفاتيح) يستعان بها في تحليل النّصوص الأدبيّة، وفكّ شفراتها.

5- التّأويل النّحويّ والبلاغيّ لبائية أبي تمام[38]:

قال أبو تمام[39] في فتح عمورية :

السيفُ أصدقُ أنباءً منَ الكتـــبِ في حدّهِ الحدُّ بينَ الجدِّ واللّعــبِ
بيضُ الصفائحِ لاسودُ الصحائفِ في متونهنّ جلاءُ الشكِّ والريـــبِ
والعلمُ في شهبِ الأرمـــاحِ لامعةً بينَ الخميسينِ لافي السبعةِ الشّهبِ
أينَ الروايةُ أم أينَ النـــجومُ وما صاغوهُ منْ زخرفٍ فيها ومنْ كذبِ ؟
تخرصاً وأحاديثاً ملفقـــــةً ليستْ بنبعٍ إذا عدّتْ ولاغـــربِ
عجائباً زعموا الأيامَ مجفـــلةً عنهنّ في صفرِ الأصفارِ أو رجبِ
وخوفوا الناسَ منْ دهياءَ مظلمـةٍ إذا بدا الكوكبُ الغربيُ ذو الذّنـبِ
وصيّروا الأبرجَ العليا مرتبـــةً ماكانَ منقلباً أو غيرَ منقلـــبِ
يقضونَ بالأمرِ عنها وهيَ غافلـةٌ مادارَ في فلكٍ منها وفي قُطـبِ
لو بينتْ قطّ أمراً قبلَ موقعـــهِ لم تخفِ ماحلّ بالأوثانِ والصّلـبِ
فتحُ الفتوحِ تعالى أنْ يحيطَ بـــهِ نظمٌ منَ الشّعرِ أو نثرٌ منَ الخطبِ
فتحٌ تفتّحُ أبوابُ السّماء لـــه وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القشـبِ
يايومَ وقعةِ عموريةَ آنصرفـــتْ منكِ المنى حفلاً معسولةَ الحلـبِ
أمّ لهم لو رجوا أنْ تفتدى جعـلوا فداءها كـــــلّ أمّ برّةٍ وأبِ
بكرٌ فما آفترعتها كفّ حادثـــةٍ ولا ترقتْ إليها همّةُ النـــوبِ
منْ عهدِ إسكندرَ أو قبلَ ذلـكَ قدْ شابتْ نواصي الليالي وهي لمْ تشبِ
حتى إذا مخضَ اللهُ السنينَ لـها مخضَ البخيلةِ كانتْ زبدةَ الحقـبِ
أتتهمْ الكربةُ السوداءُ ســـادرةً منها وكانَ آسمها فرّاجةَ الكـربِ
جرى لها الفألُ سنحاً يومَ أنـقرةٍ إذْ غودرتْ وحشةَ الساحاتِ والرحبِ
لمّا رأتْ أختها بالأمسِ قدْ خربـتْ كانَ الخرابُ لها أعدى منَ الجـربِ
كمْ بينَ حيطانها منْ فارسٍ بـطلٍ قاني الذوائبِ منْ آني دمٍ ســربِ
غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضحى يقلّهُ وسطها صبحٌ منَ اللّهـــبِ
حتّى كأنّ جلابيبَ الدّجى رغِبـتْ عنْ لونها أو كأنّ الشمسِ لمْ تغـبِ
ضوءٌ منَ النارِ والظلماءُ عاكفـةٌ وظلمةٌ منْ دخانٍ في ضحى شحـبِ
فالشمسُ طالعةٌ منْ ذا وقد أفلـتْ والشمسُ واجبةٌ منْ ذا ولمْ تجـبِ

تصرّحَ الدهرُ تصريحَ الغمامِ لها عنْ يومِ هيجاءَ منها طاهرٍ جُنــبِ
لمْ تطلعِ الشمسُ فيهِ يومَ ذاكَ على بانٍ بأهلٍ ولمْ تغربْ على عـــزبِ[40]

1/5- تحليل القصيدة / نصّية النّص[(41)]:

أشار كلّ من دي بوجراند ودريسلر إلى مفهوم النّص بأنّه حدث تواصليّ يلزم لكونه نصّا أن تتوافر له سبعة معايير للنّصيّة مجتمعة، ويزول عنه هذا الوصف إذا تخلّف واحد منها، وهذا ما لمسناه في بائيّة أبي تمام، وهي كالتّالي:

أ- السَّبْك: cohesion مرتبط باللّفظ، ويسمّى التّضام والرّبط ، وهو التّماسك اللّفظيّ بين أجزاء النّص، بحيث يؤدّي السّابق منها إلى اللاّحق، وهو معيار يهتمّ بظاهر النّص، ودراسة الوسائل الّتي تحقّق خاصيّة الاستمرار اللّفظيّ أو التّرابط الرّصفيّ.

ب- الحَبْك: coherence مرتبط بالمعنى، ويسمّى الاتّساق، وهو التّماسك المعنويّ بين أجزاء النّص، وهو معيار يهتمّ بوسائل الاستمرار الدّلاليّ في عالم النّص، وإيجاد التّرابط المفهوميّ (المعنويّ) كما ذكره سيبويه في باب الاستقامة والإحالة من الكلام.

فقد تميّزت قصيدة الشّاعر بأناقة التّعبير المتمثّلة في فخامة الألفاظ وحسن اختيارها، وتكامل التّصميم القائم على تماسك البناء اللّغويّ في شتّى أقسامه، وتعمّد الصّنيع المحبوك بمختلف المحسّنات اللّفظيّة والمعنويّة (الجناس: الصّحائف = الصفائح / الطّباق: الجدّ = اللّعب)، والتّصوير الفنّي (استعارة: تفتح أبواب السّماء/ كناية: تقدّمه جيش من الرّعب)، فبنية القصيدة ذات المقطع الحماسي، إذ يظهر الإلحاح في تصوير المشاهد الحربيّة، وإطالة اللّوحات الوصفيّة لتقيم الشّاعر في صلب القصيدة وحدات سرديّة (عناصر قصصيّة: شخصيّات، أحداث، أمكنة وأزمنة) تقوي الوظيفة الإخباريّة التّاريخيّة، وتظهر السّرديّة كذلك من خلال هيمنة الأفعال الدّالة على الحركة وتعاقبها غالبا ما تسند إلى القائد (المعتصم) الّذي اختصر في شخصيّته الجيش مجازا، وشكّل ذلك وحدة موضوعيّة فنيّة شديدة التّرابط في النّص (سبك)، فالوقفة الحكميّة في مستهلّ القصيدة (السّيف والتّنجيم) هيّأت له الانتقال إلى ذكر الفتح، فجاء انتقاله غاية في الدّقة، ورونق في التّصرّف، فيه تماسك الأجزاء، وإحكام البناء اللّذان كانا سبيله إلى التّدرج المنطقيّ، حيث يظهر لنا الفتح بعظمته (حبك).

ج- القصديّة: intentionality هي أن يكون النّص مقصودا إلى إنشائه لغرض معيّن، فلا شأن لنحو النّص بما كان غير مقصود من النّصوص؛ ككلام النّاسي والسّكران، فيجب أن يتضمّن النّص موقف منشئه، واعتقاده فيكون نصّه وسيلة للوصول إلى غاية معيّنة، ويبدو أنّ الشّاعر كان على اطّلاع واسع بالعلوم والفلسفة، فأخذ بالمنهج العقليّ ليقارب بين مزاعم المنجّمين وبين الواقع القائم على الحجّة والبرهان، وكان مبالغا في مدح الأمير الّذي يبعث الرّعب في نفوس أعدائه قبل أن يصل إليهم، وتصويره للّيل الّذي بدا كالنّهار بفعل الحرائق المنتشرة في عمّوريّة.

د- المقبوليّة: acceptability ترتبط بالمتلقي وحكمه على النّص بالقبول والتّماسك، ويراد بها مقبوليّة السّامع، فلا شأن لنحو النّص بما يخالف النّظام المقبول في عرف النّاطقين، ولا بما فيه لبس يفهم منه خلاف المراد، فالسّياق الّذي يؤدّي إلى المقبوليّة ينبغي أن يراعي صحّة القواعد النّحويّة وتوافق الرّصف بين

المفردات (النّظم)، فقد كان حري بالشّاعر أن يترفّع عن وصف الرّوم بتلك الأوصاف، ويتشفّى فيهم بتلك الطّريقة، ولا يبدي موقفه العاطفيّ، وفرحته بتلك الهزيمة الّتي ألحقت بالرّوم، فمن عرف المسلمين (المتلقي) العفو عند المقدرة، والسّمو إلى قيمة التّسامح الإسلاميّ، ولعلّ حماسة الموقف في معركة كانت حامية الوطيس أنسته ذلك، خصوصا أنّ الشّاعر كان شاهد عيان، ولسان حال جيش المسلمين المنتشي بالانتصار.

هـ- رعاية الموقف: situationally ترتبط بالموقف أو المقام الّذي أنجز من أجله النّص، وتسمّى المقاميّة أيضا، وهي العوامل الّتي تجعل النّص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه؛ فيجب أن يكون النّص موافقا للمقام أو الموقف الّذي قيل فيه، وإلاّ فلا يستحقّ أن يكون موضعا للدّراسة، ورغم حنين الشّاعر إلى منازل العرب إلاّ أنّه لم يقدّم بالوقوف على الأطلال، بل ولج في موضوعه مباشرة بانفعال (وهنا يظهر التّجديد والإبداع في شعره)، فبيّن منزلة المنجّمين في قلوب النّاس، وتنكّر المعتصم لشعوذتهم، بالإضافة إلى معلومات عن غزوة عمّوريّة، وتلبية المعتصم لنداء امرأة من زبطرة (وا معتصماه).

و- الإعلاميّة: informativity ترتبط بإنتاج النّص لدى المتلقي، واستقباله ومدى توقّعه لعناصره، وتسمّى الإخباريّة أيضا، وهي أن يكون النّص ذا مضمون يراد به الإعلام، ويصلح لذلك، فلا شأن لنحو النّص بالعبارات المبهمة ذات الألفاظ المجهولة المعنى، وفي هذا السّياق تعدّ البائية من أروع مدائح أبي تمام، لأنّه شهد الموقعة بنفسه، ووصفها بأبلغ الأوصاف؛ حيث تناول الشّاعر غرض المدح مباشرة إذ تخلّله التّسلسل المنطقيّ للأحداث، وشيوع الأمثال والحكم، والفوائد التّاريخيّة، والعاطفة الدّينيّة، والعصبيّة العربيّة، إذ بدأ الشّاعر قصيدته بتكذيبه لأهل التّنجيم، فالسّيوف البيضاء تجلو الشّكوك عن الحقائق وما علم التّنجيم إلاّ بهتان وافتراء، وشبّه جيوش المسلمين برقعة الجلد الّذي يعتمد عليه المنجّم، وشبّه الرّماح اللاّمعة بالشّهب السّبعة الّتي تنبئ بالتّنجيم، وقال إنّ العلم الحقيقيّ في الجيوش وليس في ما قيل، وبعد النّصر المظفّر راح يستفهم بتهكّم عمّا كان يرويه المنجّمون ويدّعونه، فهي أحاديث ملفّقة ليس لها أصل ولا حقيقة؛ لأنّهم زعموا أنّ شهري رجب وصفر هما شهرا شؤم.. وخوّفوا النّاس من حلول المصائب عند ظهور كوكب غربي مذنب، ثمّ انتقل للحديث عن الفتح الّذي حقّقه المعتصم بالله وجيشه، وتسامى به عن أقوال المنجمّين، وأسهب في مدح الأمير.

ز- التّناص:intertextuality هو ذلك التّداخل أو الالتقاء اللّفظيّ أو المعنويّ بين نصّ ما ونصوص أخرى سبقته استفاد منها سواء بوعي من المبدع أو بلا وعي منه، وهو أن يكون النّص مرتبطا بنصّ آخر من جهة كونهما يشتركان في موضوع واحد، أو كون التّالي تلخيصا للمتقدّم أو شرحا له، أو توضيحا لإبهامه، أو تفصيلا لإجماله، أو جوابا لسؤاله، فقد يساعد مفهوم (التّناص) على تأكيد ما روي على الإنتاج الأدبيّ بأنّه ليس وليد رؤية المبدع، ولكنّه محصّلة النّصوص الأخرى؛ ففي هذه القصيدة تظهر على الشّاعر العاطفة الدّينيّة إذ يقول إنّ الله هو الّذي رمى برجي القلعة بالمعتصم، ولو كان الرّامي سواه لما هدمها، حيث نلحظ وجود تناص مع آية من القرآن الكريم إذ يقول عزّ وجلّ: **{فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى وليبتلي المؤمنين منه بلاء حسنا إنّ الله سميع عليم}** – الأنفال: 17، كما شبّه حادثة عمورية بغزوة بدر (تناص)، ويقرّ أنّ الرّاحة الكبرى الّتي يهنأ بها المعتصم لا تكون إلاّ بالجهاد المستميت.

2/5- التّرابط النّصيّ:

بما أنّ نحو النّص يتعامل مع النّص على أنّه بنية كلّية، فإنّ "المدخل إلى التّحليل النّحويّ يكون عن طريق تحليل الخواص الّتي تؤدّي إلى تماسك النّص، وتعطي عرضا لمكوّناته التّنظيميّة النّصيّة"[42]، ولهذا كان للتّرابط النّصيّ ووسائله أهمّية كبيرة في ميدان الدّرس اللّغويّ المعاصر، إذ أصبح من ملامح نحو النّص دراسة هذه الرّوابط مع التّأكيد على المزج بين مستويات اللّغة المختلفة للوصول إلى الاتّساق الّذي يتّضح في النّظرة الكلّية إلى النّص، "فكلّ جملة في النّص لا يمكن فهمها إلاّ من خلال ترابطها بأخواتها في النّص"[43]، ويطلق على هذا النّظم الكلّي الحاكم للنّص: التّرابط النّصيّ أو التّماسك النّصيّ، وهو ما يعني وجود علاقة لفظيّة أو معنويّة بين أجزاء النّص تؤدّي إلى تفسير النّص، والكشف عن حقائقه، ولا يتأتّى ذلك إلاّ عن طريق الأدوات الموجودة في ظاهر النّص بالإضافة إلى تلك الوسائل الضّمنيّة في بنية النّص الكليّة؛ لأنّ الرّبط يمكن أن يكون دلاليّا، فمثلا لو قلنا: الطّالبة ذكية وماشية، فرغم وجود الواو الرّابطة بين الكلمتين إلاّ أنّنا نشعر بالتّنافر، لأنّه لا علاقة بين الذّكاء والمشي، فالأوّل معنويّ والثّاني حسّي، ولا يجمع بينهما حقل دلاليّ واحد، وبالتّالي لا يوجد اتّساق دلاليّ، ويأتي التّرابط النّصيّ على أحد الشّكلين:

- التّرابط الرّصفيّ: هو أقرب إلى ظاهر النّص، ويربط بالدّلالة النّحويّة الّتي تعنى بكيفيّة انتفاع المتلقّي بالأنماط الشّكليّة للوصول إلى معرفة مغزى النّص.
- التّرابط المفهوميّ: هو أقرب إلى تلك الرّوابط التّضمينيّة، أي العلاقات الدّلاليّة بين أجزاء النّص.

بالإضافة إلى الاتّجاه التّداوليّ: وهو علاقة المتلقّي بالنّص، حيث يرى دي بوجراند أنّ نحو النّص تتكاتف فيه الدّلالة مع النّحو عن طريق التّداوليّة.

3/5- وسائل التّرابط النّصيّ:

نلمس في قصيدة أبي تمام وجود ترابط لفظيّ ومعنويّ معا، فقد فتح قصيدته بمقارنة بين الحقيقة الّتي يثبتها الواقع، وبين ادّعاء المنجّمين وتنبؤاتهم، فجعل السّلاح طريق للانتصار، ثمّ جعل فتح عموريّة برهانا على صحّة قوله، وكذّب أقوالهم، فوصف ذلك الفتح، ثمّ انتقل بسلاسة وحسن تخلّص إلى مدح الخليفة، وإلى وصف حال عمورية وما حلّ بها من خراب، والسّخرية من أمير الرّوم ثيوفلس..، كما ظهرت في هذه القصيدة آثار لمختلف الثّقافات (الإسلاميّة والعربيّة والفارسيّة واليونانيّة)، ليبرهن الشّاعر على أنّه ذو ثقافة واسعة لغويّا وفلسفيّا وتاريخيّا ودينيّا؛ حيث سخّر كلّ طاقات اللّغة ومفرداتها، وأساليبها البديعيّة، وسعة خياله للتّعبير عن أفكاره، فاستعمل أسلوب الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وبحث عن الطّرق الممكنة لرصف الجمل كالتّقديم والتّأخير، والفصل والوصل، ومراعاة النّظير، ورد الأعجاز على الصّدور، وعمد إلى أن يجعلنا أحيانا نبحث عن محذوف أو معنى خفي (بنية عميقة) بعد الكناية عنه بمعنى قريب من الذّهن (بنية سطحية) بغرض التّشويق، كما استخدم بعض الوسائل النّحويّة والمعجميّة الّتي ساعدت على ترابط هذا النّص الشّعريّ؛ ومنها عود الضّمائر أو ما يقوم مقامها من إشارة أو تعريف أو إعادة لفظ، وما يراد به التّلازم بين عنصرين أو التّنافر بينهما، وغير ذلك ممّا يربط أجزاء النّص ببعضها بعض؛ كحروف العطف، وأدوات الشّرط، عناصر لغويّة أخرى؛ وهذا تفصيل لوسائل ترابط هذا النّص:

أ- **إعادة اللّفظ**[44]: يستوقفنا في هذه القصيدة ملمح التّكرار سواء لبعض الكلمات كقول الشّاعر: صفر الأصفار(كما يقال ملك الملوك)، في حدّه الحدّ (الأوّل للسّيف والثّاني للفصل بين شيئين)، ذا وذا (الأولى

للّهب والثّانية للدّخان) مخض الله ... مخض البخيلة (بعد سنين طوال أتاها المعتصم فأخذ زبدتها)، وقوله: (رمى بك الله... ولو رمى...)، وغيرها من العبارات، كما وجد في القصيدة تكرار للأحرف من باب الجناس كما في قوله: (الصّفائح والصّحائف)، (وجرب وخرب)، وقوله: مغضب (مكره على ترك الإسلام) ميت الغضب (عادوا إلى دينهم وهو من آثار النّصر)، وقوله:(فتح تفتّح) حيث يوجد تناص من القرآن الكريم كما في قوله تعالى: **{إنّا فتحنا لك فتحا مبينا}**؛ وهذا ما يدلّ على ثقافته الدّينيّة، والّتي من منطلقاتها حسن التّوكّل على الله تعالى يكون باتّخاذ الأسباب لا بالسّماع لأقوال المنجّمين، كما نلحظ في هذه القصيدة كثرة التّرادف (البيض = السّيوف =القضيب = قضب الهندي/ الخطي = الرّماح = السّمر/ المخدرة = العذراء = العرب = بالبيض أترابا = ربات الحجال/ اللّيل = الدّجى = الظّلام/ الحطب = جند الرّوم / الأسود = الجيش / الجحفل = الخميسين/ الوغى = الحرب/ الحمام = الرّدى/ حوباء = طابت أنفسهم...).

ب- التّضامّ[45]: إنّ ثّنائيات التّضاد والتّلازم الواردة في القصيدة ممثّلة في بنى سطحيّة أسهمت في تنويع نسيج النّص الشّعريّ، ومن تلك البنى نذكر:(السّيف والكتب/ الجلاء والرّيب/ أصدق والكذب/ محتسب ومكتسب/ حسن منقلب وسوء منقلب/ حرّ الثّغور (المدن المستضامة) وبرد الثّغور (أفواه الجواري الحسان)/ طاهر وجنب / الأوثان والصّلب/ ربا بأهل وعزب (أي لم يترك متزوّجا من الرّوم ولا عزب من المسلمين)/ الجدّ واللّعب/ محتسب ومكتسب..)، كما استعان بثنائية النّور والظّلام لإخراج صور الحرب في عموريّة ودمارها، فينشأ حينئذ صراع ضوئيّ يتدرّج به الشّاعر نحو تصوير بديع (ضوء من... حتّى كأنّ... لم تطلع.... لم تغرب...)؛ وجاء هذا نتيجة للصّراع بين العرب المسلمين والرّوم المشركين كبنية عميقة للقصيدة.

ج– التّعريف[46]: وردت في القصيدة كلمة (العلم) ويقصد به العلم الصّادق، والمراد مكان الموقعة، وكلمة (الفأل) ويراد به الخير كما كان خراب أنقرة نذير شؤم على عمورية، وكلمة (الذّهب المربّى) ويقصد به مال المعتصم، و(إلى الذّهب) أراد به مال ثيوفلس، وكلمة (البيض) هي السّيوف المعهودة في الحرب...

د– الإحالة[47]: تعدّدت الإحالات في هذا النّص الشّعريّ، ومنها قوله: (أجبته) فضمير التّاء إحالة إلى المعتصم، والهاء لصوت المرأة، وفي قوله: (منها سادرة... لها...) فضمير الهاء يعود على عمورية الّتي كانت رمز البهجة للرّوم، وفي قوله: (أبقيت جدّ المسلمين...) يقصد المعتصم الّذي أبقى حظ المسلمين وأعاد لهم أمنهم، ومن قبله كانوا تحت سيطرة الرّوم...، وهناك إحالة مقاميّة (معركة بدر) كما استوحى من الشّعر القديم حين تكلّم عن ربع ميّة محبوبة غيلان (ذو الرّمة)...

هـ– الاستبدال[48]: وصف عموريّة بالأنثى وبأنّها أمّ للرّوم (أمّ لهم)، وبالمرأة السّافرة الوجه (برزة) الّتي تغري الفاتحين، لكنّها تستعصي عليهم، كما وصفها بالبكر الّتي نال منها المعتصم، واستبدل المعتصم في القصيدة بلفظ (البحر، وذو التّيار، وخليفة الله، يا أمير، ومطعم النّصر)، وثيوفلس (ذو أمرهم)، ووصف الرّوم بالصّفر لأنّهم يتفاخرون ببيض بشرتهم، وحمرة وجوههم، وبصفرة شعورهم، ولكنّ الشّاعر قصد بالصّفرة ما وقع على وجوههم الّتي أصبحت كوجوه المرضى من شحوبها بعد الهزيمة، بينما جلّت وجوه المسلمين المظفّرين بالنّصر، وشبّه البيض والسّمر (السّيوف والرّماح) بدلوي الحياة (الماء والعشب)، أي موت الرّوم بحاجة إلى السّيف والرّمح، كما يحتاج العشب إلى الماء، وفي قوله: (صوتا زبطريّا) كان يقصد امرأة مسلمة مسبيّة من زبطرة استغاثت بقولها:(وا معتصماه).

و– الحذف[49]: حذف الشّاعر أشياء لا تبدو محذوفة في الكلام العادي، وذلك حين أغفل كلّ ما فعله الرّوم في زبطرة بإشارة واحدة (صوتا زبطريّا)، وفي قوله: (لو رجوا أن تفدّى..) نلمح حذف الفاعل أي عموريّة، وفي قوله: بكر فما افترعتها.. أي عمورية، وكذلك في قوله: أمّ لهم..

ز- الرّبط الرّصفيّ[50]: من وسائل أبي تمام في إجراء المعنى على التّحقيق والتّقرير استخدامه للأفعال الماضية عند سرده للأحداث، والأفعال المضارعة عند تصوير الحدث، كما استخدم الجمل الخبريّة في بيان نشوة النّصر بالإضافة إلى اللّجوء إلى الأسلوب الإنشائيّ بغرض التّهكّم والسّخريّة أحيانا كقوله: (أين...)، ونلحظ في هذه القصيدة الإكثار من الصّنعة اللّفظيّة الّتي تسري وكأنّها أمر طبيعيّ غير مقصود من دون أن تضرّ بالمعنى، حيث عرض الشّاعر صورا متحرّكة لحرب مشتعلة تتعاقب فيها الأحداث لتخرج ثبوت المشاهد إلى حركيّتها، وذلك من خلال مقاطع شعريّة متماسكة، وجمل متّصلة بأدوات مختلفة كحروف العطف (الواو والفاء..)، ومراعاة النّظير (الدّين والإسلام، الأوثان والصّليب..)، وردّ الأعجاز على الصّدور (ربع... ربعها...)، وقد أدت صيغ الحال في القصيدة وظائف متعدّدة، وهي مرتبطة إمّا بإثبات طرفي التّضاد على حال واحدة، وإمّا بتقرير حقيقة واقعيّة؛ كإثباته للعلم بالرّماح (لامعة)، ونفيه لقول المنجّمين عن السّبعة الشّهب، ويميل أبو تمام أحيانا إلى صيغة الحال بالجملة الإسميّة ليبرز غباء الآخر وضعف حجّته، وثباته على غفلته حين يقول: (وهي غافلة)، وأمّا ارتباط الحال بزمن التّغيّر فيميل الشّاعر إلى استخدام (قد) المؤكّدة للفعل المتضمّن لحال التّغيّر الّذي أصاب الآخر (ثيوفلس)، فهي أدلّ على الانقلاب والتّحوّل الّذي أصابه؛ كقوله: (ولى وقد ألجم...)، وتبعا لثنائية التّضاد الّتي بنيت عليها القصيدة فقد وظّف الشّاعر صيغ التّفضيل لإبانة الفعل التّحويليّ الّذي أداه الطّرف الأوّل (المعتصم) فغيّر به حال عموريّة، ليرينا الجمال في خرابها بالانزياح عن مقاييس الذّوق العامّ المألوف، ونلحظ ذلك في قوله: (أحقّ...، أبهى...، أشهى ...)، واستخدام أبي تمام لأسلوب الشّرط كان إمّا لتقرير حقيقة لأحد طرفي الصّراع، وإمّا لتوضيح أثر فعل الإلغاء الّذي مارسه الطّرف الأوّل (المعتصم) ضدّ الآخر، ومن تلك الأدوات نجد :(لو، إذا، لمّا، إن).

خاتمة:

عنى النّحاة القدامى بدراسة الجملة من النّاحية الوصفيّة، وألموا بحدودها في دراساتهم وتحليلاتهم؛ لأنّهم عدّوها أكبر الوحدات اللّغويّة الّتي تخضع للدّراسة في النّحو والبلاغة، ففكرة النّصيّة والرّبط النّحويّ كانت موجودة في تراثنا النّحويّ، وكان ذلك على مستوى أجزاء الجملة، وعلى مستوى يتجاوز أحيانا الجملة الواحدة: كأسلوب العطف، واشتراط الرّبط في الجملة الواقعة خبرا أو صفة أو حالا...، وهذا الحكم يكون موافقا لمقتضى الحال والمقام وحسب السّياق الّذي قيل فيه أو ما أصبح يعرف في الدّراسات اللّسانيّة الحديثة بالمفهوم التّداوليّ للنّص؛ فقد " أفرزت الدّراسات اللّسانيّة نظريّات لغويّة متباينة في الأسس المعرفيّة انبثقت عنها تيارات لسانيّة جديدة منها التّيار التّداوليّ، وهو مذهب يدرس علاقة النّشاط اللّغويّ بمستعمليه...، ويقع مفهوم الأفعال الكلاميّة في موقع متميّز من هذا المذهب اللّسانيّ الجديد في تصوّر العلماء المعاصرين، ويشكّل جزءا أساسيّا من بنيته النّظريّة "[51]، بالإضافة إلى مباحث أخرى خاصّة بأحوال المسند والمسند إليه، ومتمّمات الإسناد وغير ذلك.

الهوامش:

[1] - ابن منظور، لسان العرب، مادّة (نظم).

[2] - المعجم الوسيط، مادّة (نظم).

[3] - صالح بلعيد، نظريّة النّظم، ص: 93.

[4] - تحدّث العلماء القدامى (غير ما ذكر في المتن) عن فكرة النّظم بإسهاب، فقد كانت لفظة النّظم شائعة منذ القرن الثّاني الهجريّ، حيث أشار ابن المقفع (ت142هـ) إلى صياغة الكلام...– ينظر كتابه:الأدب الصغير ، ويرى الطّبريّ (ت310هـ) أن إعجاز القرآن يكمن في نظمه العجيب... – ينظر كتابه: تفسير الطّبري، وقد تطوّرت فكرة النّظم عند السّيرافيّ (ت358هـ) حين تحدّث عن معاني النّحو.. – ينظر كتابه: الامتناع والمؤانسة، ويرى الباقلاني (ت403هـ) أنّ القرآن معجز بالنّظم غير المعتاد في كلام العرب.. -– ينظر كتابه: إعجاز القرآن، وتبلورت هذه الفكرة مع القاضي عبد الجبّار (ت415هـ) الّذي ربط الفصاحة بالنّظم وبنى عليها رأيه في إعجاز القرآن.. – ينظر كتابه: المغني في أبواب التّوحيد والعدل.

[5] - سيبويه، الكتاب ، ج 1/ص:8.

[6] - ينظر: حاتم صالح الضّامن، نظريّة النّظم – تاريخ وتطوّر-، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام، العراق، 1971، ص: 5.

[7] - الجاحظ، الحيوان، شرح وتحقيق: يحي الشّاميّ، ط2، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1990م،130/1 وما بعدها.

[8] - ينظر: الجاحظ البيان والتّبيين، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص:67.

[9] - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق محمّد محمود شاكر، ط5، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004، ص: 37.

[10] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 208.

[11] - ينظر: حاتم الضّامن، نظرية النّظم، ص: 95 ومابعدها. والصِّرفة: اعتقادهم بأنّ الله قد صرف العباد بأن يأتوا بمثل هذا النّظم).

[12] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 342.

[13] - ينظر: محمّد مندور، النّقد المنهجيّ عند العرب، ص: 326.

[14] - ينظر: إبراهيم أنيس، من أسرار اللّغة، ص: 286 وما بعدها.

[15] - ينظر: هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي في التّراث العربيّ، ص: 30.

[16] _ ينظر: معجم اللّسانيات الحديثة، ص: 21.

[17] - ينظر: ابن جني، الخصائص،

[18] - ينظر هادي نهر، علم الدّلالة التّطبيقي في التّراث العربيّ، ط1، عالم الكتب، عمان 2008، ص: 118.

[19] - ينظر: طاهر سليمان عودة، ظاهرة الحذف، ص:،13 وما بعدها.

[20] - تمّام حسان، اللّغة العربيّة معناها ومبناها، ص: 34.

[21] - عبد الكريم مجاهد، علم اللّسان العربيّ، ص: 25.

[22] _ ينظر ، عبد العظيم فتحي خليل، مباحث حول نحو النّص،

[23] - ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، المجلس الوطني الكويتي، 1992، ص: 252.

[24] _ ينظر: أحمد عفيفي، نحو النّص: اتّجاه جديد في الدّرس النّحويّ، مكتبة زهراء الشّرق ، القاهرة، 2001م، ص: 31 وما بعدها.

[25] - ينظر ، عبد العظيم فتحي خليل، مباحث حول نحو النّص، ص:

[26] - ينظر: سعيد البحيري، علم لغة النّص، ص: 218.

[27] - ينظر: - السّابق، ص: 220.

[28] - تمام حسان، نحو الجملة ونحو النَّص، ص: 1.

[29] - ينظر: عبد العظيم فتحي خليل الشّاعر، ص: 15-16، شبكة الألوكة www.alukah.net

[30] - ينظر: قضايا النّقد الأدبيّ والبلاغة، ص: 242.

[31] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 199.

[32] - المرجع السابق، ص: 186.

[33] - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 241.

[34] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 212.

[35] - مفاهيم سيميائية بمصطلحات بلاغية ، م س ، ص : 03 .

[36] - المرجع السابق ، ص : 04 .

[37] - المرجع السابق نفسه ، ص : 04 .

[38] أبو تمام الطائي : (188 ـ 231 هـ) : حبيب بن أوس بن الحارث الطائي , أبو تمام : الشاعر , الأديب , أحد أمراء البيان , ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر , واستقدمه المعتصم إلى بغداد , فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق , ثمّ ولي بريد الموصل فلم يتم سنتين حتى توفي بها . كان أسمر طويلاً , فصيحاً , حلو الكلام , فيه تمتمة يسيرة , يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطع , في شعره قوة وجزالة , وآختلف في التفضيل بينه وبين المتنبي والبحتري , له تصانيف منها : فحول الشعراء , وديوان الحماسة , ومختار أشعار القبائل وهو أصغر من ديوان الحماسة ونقائض جرير والأخطل نسب إليه ولعله للأصمعي كما يرى الميمني , والوحشيات وهو ديوان الحماسة الصغرى , وديوان شعره ومما كتب في سيرته (أخبار أبي تمام) لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي , (أبو تمام الطائي حياته وشعره) لنجيب محمد البهبيتي المصري , (أخبار أبي تمام) لمحمد علي الزاهدي الجيلاني , (أخبار أبي تمام) للمرزباني , (أبو تمام) لرفيق الفاخوري , ومثله لعمر فروخ , (هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام) يوسف البديعي.

[39] - ينظر: معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002، كامل سلمان الجبوري، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، 2003 م، م 2 ص: 16.

[40] - ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التّبريزيّ، تح: الرّاجي الأسمر، دار الكتاب العربيّ، بيروت – لبنان، 1994، وينظر: ديوان أبي تمام، تقديم وشرح : محي الدين صبحي ، ط 1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، 1997م، م 1، ص: 96.

[41] - **تعريف النّص (text):** في بعض المراجع الحديثة هو تتابع منظّم من الإشارات اللّغويّة الّتي تفهم على أنها توجهات من مرسل معيّن إلى مخاطب معيّن، فهو وحدة دلاليّة بحسب هاليداي ورقية حسن، أي أنّه وحدة معنى وليس وحدة شكل، فالنّص لا يتعلّق بالجمل وإنّما يتحقّق بواسطتها، فإنّه" اللّغة الوظيفيّة، الّتي تؤدّي بعض الوظائف في بعض السّياقات"[41]، ويعرفه سميث بقوله: " النّص كلّ تأليف لغويّ منطوق من حدث اتّصالي محدّد من جهة المضمون، ويؤدّي وظيفة اتّصاليّة يمكن إيضاحها، أي يحقّق إمكانية قدرة إنجازيّة جلية يقصدها المتحدّث، ويدركها شركاؤه في الاتّصال، وتتحقّق في موقف اتّصالي ما، إذ تتحوّل المنطوقات اللّغويّة إلى نصّ متماسك، يؤدّي بنجاح وظيفة اجتماعيّة اتّصاليّة، وينتظم وفق قواعد تأسيسيّة ثابتة". ويعرّفه بنفينيست بأنّه " ملفوظ طويل أو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التّوزيعيّة وبشكل يجعلنا نظلّ في مجال لسانيّ محض". فقد احتلّ مفهوم النّص مجالا واسعا عند المهتمّين بلسانيّات النّص ونحو النّص، حيث ربط بالإنتاجيّة النّصيّة، وليس مجرّد جمل متتاليّة في سياق معيّن، فيمكن أن يكون النّص كلمة واحدة أو جملة واحدة، لأنّ النّص وحدة كليّة مترابطة الأجزاء، والمعنى يتحدّد من

خلال النّص لا من خلال الجملة، إذ ترتبط الأجزاء السّابقة باللاّحقة، كما ترى جوليا كريستيفا، أنّ النّص "عمليّة إنتاجيّة مركّبة داخل اللّغة محرّكة لذاكرة الزّمن تتقاطع نصوصها مع نصوص أخرى متداخلة الدّلالة، من هنا فليس النّص مجموعة من الملفوظات النّحويّة أو اللاّنحويّة، إنّه كلّ ما ينصاع للقراءة عبر خاصيّة الجمع بين الطّبقات الدّلاليّة الحاضرة" -(جوليا كريستيفا، علم النّص، ص: 14، نقلا عن: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، ص: 229).

أمّا المعايير النّصيّة فقد صنّفت كما يلي (– ينظر:دي بوجراند، النّص والخطاب والإجراء، ص: 103 وما بعدها.):

- ما يتّصل بالنّص في ذاته هما معيارا السّبك والحبك.

- ما يتّصل بمستعملي النّص سواء أكان منتجا أم متلقّيا هما معيارا القصد والقبول.

- ما يتّصل بالسّياق المادّيّ والثّقافيّ المحيط بالنّص، هي معايير الإعلام والمقاميّة والتّناص.

[42] - Haliday M and Hassan R ,Cohesion In English, P:4 نقلا عن: أحمد عفيفي، اتّجاه جديد في الدّرس النّحويّ، ص: 95.

[43] - محمّد حماسة عبد اللّطيف، اللّغة والإبداع، ص: 130.

[44] أو التّكرار، وهو شكل من أشكال التّماسك المعجميّ الّتي تتطلّب إعادة عنصر معجميّ، أو وجود مرادف، ويتمثّل في تكرار لفظ أو مجموعة من الألفاظ قصد التّأكيد[44] إنشاء التّرابط بين أجزاء النّص، وقد مثّل هاليداي ورقية حسن بنموذج للتّكرار المعجميّ بقولهما: اغسلي ستّ تفاحات للطّبخ، وانزعي نواها، ثمّ ضعي التّفاحات في صحن يقاوم النّار.

Wash and care six cooking apples, put the applies into a fireproof dish.

في هذا المثال تمّ التّماسك عن طريق تكرار كلمة (التّفاحات)، فتلك الكلمة المكرّرة وهي في حالة تعريف ساعدت على تماسك هذا النّص، وتتنوّع صوّر الرّوابط التّكراريّة كالآتي:

أ- التّكرار المحض (الكليّ) وهو نوعان:

الأوّل- التّكرار مع وحدة المرجع (أي يكون المسمّى واحدا)

الثّاني- التّكرار مع اختلاف المرجع (أي المسمّى متعدّد)

ب- التّكرار الجزئيّ ويقصد به تكرار عنصر سبق استخدامه في أشكال مختلفة

ج- شبه التّكرار أقرب إلى الجناس النّاقص على حدّ رأي سعد مصلوح، وهو أقرب إلى التّوهّم حيث تفقد عناصره التّكرار المحض، ويتحقّق في مستوى التّشكّل الصّوتيّ ليصنع نوعا من التّماسك.

د- تكرار لفظ الجملة: هو تكرار لنظم الجمل بكيفيّة واحدة، أي تكرار الطّريقة الّتي تبنى بها الجملة مع اختلاف الوحدات المعجميّة.

هـ- التّكرار بالتّرادف: هو تكرار لكلمتين تحملان معنى واحدا.

[45]- يراد به التّلازم بين عنصرين أو التّنافي بينها، ويعدّ التّضامّ من وسائل التّماسك النّصيّ المعجميّ، وهو توارد كلمتين بالفعل أو بالقوّة نظرا لارتباطهما بحكم علاقة ما، وللتّضام علاقات متنوّعة منها:

أ-التّضاد الحادّ: وهو قريب من النّقيض؛ كقولنا: ذكر وأنثى..، أو التّضاد بالعكس، كقولنا: باع واشترى..، أو التّضاد الاتّجاهيّ، كقولنا: أعلى وأسفل/ يأتي ويذهب..

ب- التّنافر: هو مرتبط بفكرة النّفي، ككلمة (خروف وذئب/ جندي وقائد/ شهر وعام...

ج- علاقة الجزء بالكلّ: كعلاقة اليد بالجسم، وعلاقة العجلة بالسّارة..

هذه العلاقات بين الكلمات تبعث في النّص التّضامّ، وتصنع تماسكا نصّيا بدلالتها المتناقضة "فشعور المتكلّمين – كما يرى جون لوينز- يتّجه إلى اعتبار المتقابلين في التّضادّ ذا معنى إيجابيّ، والآخر ذا معنى سلبيّ"، فالضدّ يظهر حسنه الضّد.

[46]- هو وضع للعناصر الدّاخلة في عالم النّص حين تكون وظيفة كلّ منها لا تحتمل الجدل في سياق الموقف، فإنّ المحتوى المفهوميّ يكون سهل الاستحضار على أساس المساحات المعلومة، أمّا النّكرات فتتطلّب من ناحية ثانية تنشيط مساحات معلومة أخرى، كما ورد في مثال هاليداي (التّفاحات..).

[47]- هي علاقة دلاليّة بين الأسماء والمسمّيات الّتي تخضع لقيد أساسي، وهو وجوب تطابق الخصائص الدّلاليّة من العنصر المحيل إلى العنصر المحال إليه، والعناصر الإحاليّة من الألفاظ لا تملك دلالة مستقلّة، بل تعود إلى عناصر أخرى مذكورة في أجزاء أخرى للنّص، وتنقسم الإحالة إلى قسمين:

- إحالة داخل النّص (قبليّة أو بعديّة).

- إحالة خارج النّص (المقاميّة).

وتتفرّع وسائل التّماسك الإحاليّة إلى الضّمائر، وأسماء الإشارة، والأسماء الموصولة، أدوات المقارنة كالتّشبيه..، ويمكن تصنيف الإحالة حسب الظّرفيّة الزّمانيّة (الآن وغدا)، أو المكانيّة (هنا وهناك). أمّا الإحالة خارج النّص (المقاميّة) فهي الإتيان بالضّمير للدّلالة على أمر ما غير مذكور في النّص مطلقا، غير أنّه يمكن التّعرّف عليه من سياق الموقف، إذ تسهم هذه الإحالات المقاميّة في إبداع النّص، لأنّها تربط اللّغة بالسّياق، غير أنّها لا تسهم في اتّساقه بشكل مباشر.

[48] - هو صورة من صور التّماسك النّصيّ الّتي تتمّ في المستوى النّحويّ والمعجميّ بين الكلمات والعبارات، أي علاقة بين نصّ متأخّر وجزء متقدّم؛ فهو "عمليّة تتمّ داخل النّص، إنّه تعويض عنصر في النّص بعنصر آخر"، أي وجود العنصر المستبدل في الجملة اللاّحقة، وشرط الاستبدال أن يتمّ استبدال وحدة لغويّة بشكل آخر يشترك معها في الدّلالة، حيث ينبغي أن يدلّ كلا الشّكلين اللّغويّين على الشّيء غير اللّغويّ في نفسه لتحقّق الشّرط ويظهر الرّبط، وينقسم الاستبدال إلى ثلاثة أقسام:

- الاستبدال الاسميّ: ويتمّ باستخدام عناصر لغويّة اسميّة (آخر، نفس..).

- الاستبدال الفعليّ: ويمثّله استخدام الفعل (يفعل)، نحو: أتظنّه يقوم بذلك؟ - نعم يفعله.

- الاستبدال قوليّ: يكون باستخدام بعض الكلمات مثل: (ذلك، لا..).

[49]- تجيز العربيّة كغيرها من اللّغات حذف أحد العناصر من التّركيب عند استخدامها، " وذلك لا يتمّ إلاّ إذا كان الباقي في بناء الجملة بعد الحذف هناك قرائن معنويّة أو مقاليّة تدلّ عليه، ويكون في حذفه معنى لا يوجد في ذكره، وعلى هذا تكون البنية السّطحيّة لأي نصّ غير مكتملة غالبا بالرّغم ممّا يبدو في تقدير المتلقّي، وقسّم هاليداي الحذف إلى:

-حذف اسميّ كقولنا: - أيّ قميص تشتري؟ هذا.

- الحذف الفعليّ كقولنا: ماذا كنت تنوي؟ السّفر.

- الحذف داخل ما يشبه الجملة: كم يقدّر ثمن هذا القميص؟ خمسة جنيهات.

[50] - هو تماسك وظيفيّ يعتمد على الرّوابط السّببيّة المعروفة بين الأحداث الّتي يدلّ عليها النّص، وهي عبارة عن وسائل متنوّعة تسمح بالإشارة إلى المتواليات النّصية، مثل: (لأنّ، وعليه، لكن..)، ومن صور الرّبط: مطلق الجمع (الواو علاوة على هذا)، تشابه التّخيير:(مثلا) معنويات متماثلة، الاستدراك: (لكن، بل، مع ذلك)، علاقة تعارض التفريع: (مادام، من حيث، لهذا، بناء على هذا، ومن ثمّ هكذا..) حالة تدرّج.

[51] - ينظر فان دايك: النّص والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدّلاليّ والتّداوليّ، ترجمة عبد القادر قنيني، الدّار البيضاء، دار إفريقيا الشّرق، د، ت، ص: 255.